# قصة لم يكتبها الشيطان

**قصة لم يكتبها الشيطان: نصوص قصصية**
**الكاتب: عادل الغنَّام**
**تدقيق لغوي وإخراج فني: الباشا عبدالباسط**
**رقم الإيداع: 15107 / 2019**
**الترقيم الدولي: 978 - 977 - 844 - 050 - 8**

دار الزيات للنشر والتوزيع **:Facebook Page**
**E- mail:** bentelzayat1@gmail.com
**Website:** www.bentelzayat.tk

**مجلس الإدارة / د. شاهندة الزيات**
**المدير العام/ أ. محمود محروس إبراهيم**
01066736765 - 01011122429

**جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة ©**
**لدار الزيات المشهرة قانونًا بسجلّ تجاريّ رقم / 49351**

# قِصَّةٌ لَمْ يَكْتُبْهَا الشَّيْطَانُ

نُصوصٌ قَصَصِيَّةٌ

الكاتِبُ

عَادِلُ الغَنَّامِ

دار الزيات للنشر والتوزيع

# إهداء

إلى أمي

أراها الآنَ...

روحكِ الأبدية...

ترشفُ من كؤوس المحبة،

تنثر زهور الفرح.

كل إنسان يحمل في نفسه جزءًا من الحقيقة،

فمن استأثر بعلمه... ضل.

ومن زعم المعرفة... جهل.

ومن بات قرير العين... هلك!

# قصة لم يكتبها الشيطان

(١)

وصلنا جزيرة مقفرة، لا يسري في المكان غير صوت ارتطام الموج الأسود بالصخور. اكتشفت كذب صديقي الذي يقول إن فوق كل موجة من موجات الليل شيطان يمتطيها جيئةً وذهابًا، فلم أرَ حينها غير جني صغير يضرب بعصاه البحر. يندفع الموج إلى الشاطئ. يصفق الجني بيديه وقدميه في فرحة طفولية.

تابع في زهو دهشتي المرتعدة، همس في أذني بأنفاسه الحارة "هذه هي قصتك الأولى!"

(٢)

بعد عشر سنوات من القطيعة بيني والوحي، لم يكن هناك بد من اللجوء إليه، عشرات القصص والروايات غير المكتملة، مسرحيات

تدور مشاهدها برأسي دون أن أتمكن من تسجيل فصل واحد منها، أتوق إلى الغوص في الكتابة حتى الثمالة. لكن كيف الوصول إليه؟ جلستُ ساعات بين الضوء والظل، سكبت الحليب في دورات المياه، فعلت كل ما قرأت كي يأتي به دون فائدة. لجأت أخيرًا إلى غرفة مكتبي. تأملتُ المكتبة الضخمة التي تشغل الحائط بأكمله، وضعت أمي لبنتها الأولى، وحرصتُ على حملها معي إلى شقة زواجي مع المكتب الخشبي القديم، المثبت عليه لوحة الطفل الباكي. أذكر يوم كنت أضع اللوحة في مكانها. دخلت أمي الغرفة تقفز في سعادة، تحمل بين يديها مجلة "البحراوية" وقد نشرت لي خاطرة صغيرة كانت قد أرسلتْها سابقًا عن طريق صديقتها المسؤولة عن صفحة الأدب في المجلة. الشيء الوحيد الزائد عن الغرفة كان جيمي، الحيوان الذي ظلت أمي ترفض دخوله منزلنا، تمكنت أخيرًا من اقتنائه، غير مسموح له بمغادرة الحجرة، هكذا هو الاتفاق مع سماح زوجتي، التي وللصدفة السعيدة تحمل نفس هواجس أمي من الكلاب وسائر الحيوانات الأليفة!

استلقيت على مقعدي وجيمي يدور في الغرفة. يبدو عليه القلق. ربما تسلل إليه ما في نفسي من حيرة. أنفاس حارة تأتي من خلفي. تنزلق إلى أذني في خفة. صوت يملأ عقلي كله. أنصت إليه في خشوع. أنا من طلبت ويجب الإصغاء والإذعان. يملي عليَّ عقد اتفاق. عشر قصص يكتبها لي. أرفض. يلهمني إياها. نتفاوض. أعايشها. يصحبني معه، الزمن، أيام عشرة متتالية. المقابل فادح. لا جدال. شرط وحيد. الرجوع عن الاتفاق عاقبته الحرمان مما سبق... ومما كان... لم أفهم ولم أحاول؛ فلقد كنت مقبلاً على التجربة بكل كياني حتى وإن كان المقابل "سماح"!

(٣)

تبقى من زمن الاتفاق ليلتان، صدق معي الوعد، حكايات لم تكن لتراود أحلامي. تبدأ الرحلات من هبوط المساء إلى بزوغ الفجر، ثم ألبث طوال النهار أكتب وأكتب وحتى موعد اللقاء. لم أقرب سريري، هكذا الاتفاق، تأتي سماح عندي تشكو أرق نومها. أحلام عجيبة،

وأماكن غريبة ترحل إليها، لا أبالي، تعود في الليلة التالية تصرخ من ألم بجسدها، علامات زرقاء وخضراء في يديها وقدميها. تحكي كابوسًا عن طفل صغير يحاول النيل منها في جزيرة مهجورة، تقاومه فينهال بعصاه عليها، أنهرها لمقاطعتها لي أثناء الكتابة، تغلق الغضب والشك على قلبها ولم تعاود الشكوى أو دخول المكتب. جيمي يبدأ في الدوران والقلق إيذانًا بوصوله. يبشرني برحلة مبهرة. أنظرُ حولي فإذ بي في صالة ملهى ليلي قديم، أعرفه جيدًا. كنت أمر من أمامه أثناء رحلتي الأسبوعية إلى "أتيليه" الفنانين والكتاب في الإسكندرية لحضور الندوات ومناقشة أعمالي القصصية. لم أجرؤ قَط على دخوله. هل انتقلتُ من دمنهور إلى عروس البحر في غمضة عين؟ المكان مزدحم. وجوهٌ كثيرة أعرفها تجلس خلف الطاولات المستديرة. أحاول أن أخفي وجهي أثناء المرور إلى "البار" الرئيسي، ثم أدركت أنه بلا داع، فكلهم سكارى. يتبادلون الكؤوس مع رفاقهم الغواني، تعلو ضحكاتهم مع دخان لفائفهم، بصاقهم، وبولهم الذي ينفلت منهم أحيانًا دون شعور! جلستُ على

"البار" الرئيسي تنتشي عيناي بكل ما حولي. لفت انتباهي نادلة فاتنة، بل هي الفتنة ذاتها، تدور بين الطاولات، تهتز مع الموسيقى الصاخبة، يطلبها الجميع فتتدلل. تتجه بشكل مباشر نحوي. اختطفتْ في طريقها زجاجة خمر، ولم أعرف كيف حدث ما حدث! بصيص من الضوء يلوح من النوافذ الحمراء والزرقاء. انتبهت لنفسي وسط القاعة وكل من فيها ملتف حولي في نصف دائرة. هل كانوا على تلك الهيئة طوال الليل؟ قمت مهرولاً فاندفع كل من في القاعة محاولًا النيل من الفتاة. فزعت من هول ما رأيت. ركضت مبتعدًا لعلي أجد طريق الخروج. شعرتُ به وقد وصل في تلك اللحظة. تمنيت لو رأيته حينها، ولو لمرة واحدة، كي أفرغ معدتي في وجهه. قابلني بضحكة واثقة.

- لعلك لم تهنأ بليلة مثل هذه من قبل؟

- لكن الفتاة...

- اسمها سماح...

- سماح؟

التفتُ خلفي فرأيتهم يقذفون بالفتاة في الهواء بمرح، نظرتُ إليها في رعب، توقف قلبي عن الخفقان، كانت تشبه زوجتي إلى حد كبير، كيف لم أنتبه لذلك من قبل؟

- إنها سماحي أنا صديقي العزيز. هي لك وقت ما تحب، أليست بمقايضة عادلة؟

(٤)

..لم أقرب مكتبي طوال اليوم، مكثت بسريري على غير العادة، سماح تدخل الغرفة وتخرج تملؤها الأسئلة، يُسَوِّدُ وجهها التعب، وتحيط بعينيها هالات قاتمة من قلة النوم. غربت الشمس منذ قليل، وجيمي يصدر نباحًا عاليًا وانتابته حالة من الهياج.

- ربما كان جائعًا، لم يأكل طوال اليوم، ألن تدخل لتطعمه؟

- لا يا سماح، ليس بجائع، وليس بجيمي، إنه شيء آخر، تعالي إلى جواري، سأطلعك على أمرٍ مهم:

- هل تخونني؟

اندهشت من سؤالها المفاجئ؟

- أنا؟ كيف ورد هذا على بالك؟ عندي شيء أخطر من ذلك بكثير.

- أخطر من الخيانة؟ لا تكذب، أراك كل ليلة في منامي مع امرأة غيري. تغلق عليك بابك دائمًا وتحدثها على الهاتف بالساعات. أسمع صوتك طوال الليل. وبالأمس... أنت تعرف ما فعلته.

- أنا... ماذا فعلت؟

- لقد دعوتها إليك وفعلت أسوأ ما يفعله رجل في الوجود. أن يدعو المومسات إلى بيته وفي حضور زوجته.

لم أعرف حقًّا ماذا أقول، لقد اختلط الأمر برمته في ذهني. رأسي يدور، أسرد لها ما حدث منذ الليلة الأولى، عن رغبتي في الكتابة والاتفاق، عن الرحلات الثماني التي دونتها بنفسي.

-هل تصدقينني؟ إنه يحاول أن يفرق بيننا.

- وأنتَ هجرتني.

- هكذا كانت الصفقة ولم أعرف بنيته الخبيثة... عندي الدليل... سآتيك بكل ما خطته بيدي خلال الأيام الماضية.

- لم أعد أصدقك... أنت تختلق الأوهام لتبرر خطاياك ثم تصدقها. هل عاودتك الوساوس مرة أخرى؟ عليك بمراجعة طبيبك النفسي، قد تكون في حاجة لبرنامج علاجي جديد.

تركتُ سماح تجهز أغراضها استعدادًا لمغادرة المنزل. إلى أين ستذهب؟ فليس لديها من تلجأ إليه من أهلها بعد وفاة والديها ومقاطعة أقاربها لها. فتحتُ غرفة المكتب، كان جيمي هائجًا تمامًا، واقفًا على قدميه الخلفيتين، ينظر في عيني بشراسة. صوته يملأ رأسي "الاتفاق أيها الكاتب، الليلة تحصل على قصتك الأخيرة، وأحصل على سماح". سألته في غضب: لماذا سماح؟ وماذا ستفعل بها؟ جاءني الرد كصفعة أطاحت بي في ركن من الغرفة.

- تأخر سؤالك يا صديقي، لم يعد هذا من شأنك، والليل على وشك الرحيل، لا مجال للتراجع، سأمنحك هدية أخيرة. رواية محررة تحصل بها على جائزة "البوكر".

- لا... ارحل بعيدًا... وسأحصل على ما كتبته بنفسي ولن تقترب من سماح. اخرج من حياتي للأبد.

اختطفت أعمالي بسرعة. لمحتُ مظروفًا أصفر اللون مكدسًا بالأوراق، لعلها الرواية المزعومة. أريد أن ألحق بزوجتي قبل الرحيل، لكن جيمي باغتني وقفز على وجهي، سقطتُ على رأسي، غبت عن الوعي.

(٥)

- أدهم... استيقظ... ألن تذهب إلى "الأتيليه"؟ الساعة الثالثة مساءً. اليوم جمعة والمواصلات إلى الإسكندرية مزدحمة. متى موعد الندوة؟

صداع شديد يضرب رأسي، أدور ببصري في المكان، غرفتي الصغيرة المرتبة دائمًا، المكتبة المثبتة على الحائط المواجه لسريري، أصواتٌ احتفالية وأبواق سيارات نقل وزغاريد تنساب من نافذتي المطلة على الشارع.

- الليلة "حنة" سماح بنت الجيران، العقبى لك يا حبيبي، ستتزوج ابن عمها. أمها تقول إنه تاجر حبوب ومحاصيل زراعية. وددت أن أخطبها لك. البنت حلوة. مناسبة لك. وأنا على علم أنك تميل إليها، لكن"منه لله" عمها، كأنه شيطان، هو من عطل الموضوع، أرادها لابنه، يريد أن يستحوذ على الفدادين التي ورثتها عن أبيها رحمة الله عليه. هو النصيب يا بني على أي حال!

انصرفت أمي وهي تردد: "لا تهتم، غدًا ستصبح كاتبًا كبيرًا وقصصك تملأ المجلات. مدام سميرة وعدتني بأن تنشر لك قصة كل شهر في مجلة "البحراوية". أدفعُ النوم عن جفوني. أطلب فنجانًا من القهوة؛ لأستعيد نشاطي. ألقي نظرة من النافذة على وجه سماح الحزين وهي تركب سيارة الزفاف التي ستُقِلُّهَا إلى مركز التجميل لتهيئتها

للسهرة. أعود وأجلس على مكتبي أراجع القصة التي سأقرأها في الندوة. انتبهتُ لمظروف أصفر غريب يغطي وجه الطفل الباكي، من جاء به؟ فتحته فوجدت قصاصات أوراق كثيرة محترقة، أحاول أن أتبين أي شيء تمكن قراءته، يعاودني ألم يضرب مؤخرة رأسي. أمسكت بورقة أخيرة يظهر بها سطر وحيد: "العقاب... حرمان... مما سبق ومما كان".

❋ ❋ ❋

# مدد يا سيدنا

وأسرع سيِّد إلى طريق "الكورنيش" الخالي هاربًا من آلامه، إنها الليلة الكبيرة لمولد سيدنا "أبو الريش" والميدان المتسع يمتلئ بالبشر المتصارع من أجل خطوة للأمام، الصياح في كل مكان، سحب الدخان تلتهم الأعشاش الخشبية المتناثرة، عشرات المخبرين يهرولون خلف بعض الصبية الذين يلقون لفائف "البانجو" في مياه النهر، عربات الشرطة تطوق الميدان.

- آه يا زينب...

تنهد بعمق وصورة زينب أمام عينيه، كانا يغوصان معًا منذ قليل وسط "المولد"، يدفعها من خصرها بين تجاعيد الحشد المتلاصق كرقعة جلدية منبسطة، تنتهي كل محاولات التقدم بتماسك أكبر بينهما، يغمرهما شلال من العرق، يجذبها من ذراعها بقوةٍ محاولًا الابتعاد نحو بقعةٍ خالية، تخفت أضواء المولد تدريجيًّا مع خطواتهم المرتبكة، تراتيل الذِكر تتردد أصداؤها بين الحقول الخضراء.

- مدد يا سيدنا...

جلسا قرب مقام سيدنا "أبو حصيرة" الذي يتبوأ ربوة عالية من الرمال، يقولون إنه جاء إلى هذا المكان منذ قرون عبر البحر ممتطيًا ظهر حصيرة من الخوص. يأتي أتباعه اليهود ليحتفلوا بمولده كل عام، يراهم سيد من بعيد، يرقصون في الهواء الطلق، يحتسون الخمر، يتضاجعون في الخيام حتى تنتهي مراسم المولد، يقترب من زينب متأملًا وجهها الأبيض الذي يصب فيه أشجانه وأمانيه، يزداد اقترابًا ليطبع قبلةً سريعةً على وجنتها الوردية النضرة، لكنها تقوم في غضب وهي تنفض عن فستانها غبار الجلسة.

- لا يا سيد، أنا بنت ناس.

- كل العساكر في المولد، وأنا حبيبك!

- أول شيء أبوك يكلم أمي!

ويلتفت سيِّد؛ ليتابع الفتاة التي ظهرت تحت المصباح الوحيد المضيء في شارع الكورنيش، تجلس على السور الحديدي، تؤرجح

قدميها النحيلتين في الهواء، تبدو كتمثال من البرونز لا تستطيع أن تميز فيه سوى بعض الدهان الرخيص الذي يلطخ الوجه.

- باحا؟!

اقترب ليفصله عنها الرصيف الضيق، عينان تنظران إليه في شهوة، تعيش بين أحضان بعض المعتوهين.

- والله زمان يا باحا!

...ويمد يده إلى زينب التي هربت كنجم أضاء السماء لبرهة ثم تلاشى، استدار على أثر ضحكة ساخرة اهتز لها مقام "سيدنا"، اندفع يبحث عنها مقتحمًا تيار الزائرين الراكد في الميدان، وجد نفسه قرب "كشك" والده الذي كان كعادته يناول "بندقيات الرش" للصغار الذين يصوبونها نحو صور الممثلين، تساعده "شروق" -أخته من أبيه- الصغيرة الممتلئة كجاموس ضخم.

- ياه، والله كبرتِ يا شروق!

وتابع في سكون جلباب اللحم المترهل، يسبح في مزيج من ذرات الغبار والعرق الناجمين من قفزاتها المتعددة، حتى إن بعضهم يرغب في التصويب عليه بدلًا من الصور القديمة.

- ابعد عن أختك يا بن ال...

وتلقيه صفعة والده عدة أمتار للوراء، يسرع بعدها نحو "الكورنيش" الخالي بهذا الوقت. كاد أن يفاتحه في موضوع زينب وأمها صاحبة عربة الكشري والحكايات القديمة، محاولًا إقناعه أن يسكنوا معًا في عشتهم الخشبية جوار "الكشك" صحيح أن بها أمه وأخواته البنات الثلاث، إلا أنها أفضل من ربوة مولانا "أبو حصيرة".

- لعب العيال يا باحا.

وبدأ يتفحص وجهها المتلطخ بطبقات من مساحيق التجميل الرخيصة.

- تعال يا سيد، كأننا عيال!!

وتمر فتره طويلة تغمض فيها "باحا" عينيها في انتظار وصول سيد الساخن، ولكنها تعود لتجده كما هو شاردًا ومحدقًا في الفراغ. قلبت شفتيها، دفعته ثم سارت نحو موقع أكثر ظلامًا وهي تغمغم:

- اعذرني يا سيد، لن أنام ليلة أخرى من غير عشاء!

وتركها سيد تذهب دون محاولة متابعة خطواتها المتمايلة، أمسى النهرُ أكثر روعة. اشتاق لزينب، ضحكتها الصافية، نبرة صوتها الحادة وهي تقدم أطباق الكشري لزبائن أمها، سبها العفوي الذي يستقبل أصحاب العيون الزائغة والألسنة الطويلة.

صار "المولد" أقل زحامًا، عربات الشرطة ترحل زاخرة بالعشرات، ليس من بينهم "باحا". اتجه نحو أبيه الجالس يحصي بعض العملات. سيحاول أن يقنعه هذه المرة بنصب خيمة صغيرة جوار "العشة"، يعيش فيها مع زينب، بعيدًا عن الزحام وعصيِّ المخبرين والسخرية المهينة لمولانا "أبو حصيرة".

❋ ❋ ❋

# النعش

دومًا أذهب إلى الجامع، أصلي في الفناء الخلفي، أسير في الممر بين القاعة الكبرى والفِناء رافعًا ذيل جلبابي، متلفتًا عن يميني لأشاهد الناس أثناء الوضوء، الممر يغطيه البلاط، ويبرز في منتصفه بئر غير محكمة الغطاء يتعثر بها المصلون عند صلاة العشاء. أجلسُ كعادتي بعد الصلاة، أكوم المداس تحت قدمي وأتأمل الكائن الخشبي الساكن في الممر، أراه كل يوم كما هو، يغيب أحيانًا ثم لا يلبث وأن يعود لوضعه السابق، تطل الكآبة من أركانه وتثير ظلاله هلعًا في نفسي. يلقي عليه الناس السلام فلا يرد، ويكتفي بنظراته الجامدة الصارمة التي تكاد تلتهم ما حوله. إحدى المرات سألتُ سعيد صبي العجلاتي عن هذا الشيء الضخم، فرد في سرعة وهو يدخل دورة المياه إنه النعش. نعش؟ وماذا يعنى؟ سألته ثانيةً فلم يرد.

كان سعيد يأتي إلى الجامع بعد الصلاة، يضع دراجته الكبيرة في مواجهة هذا النعش، يدخل دورة المياه ثم يعود ليأخذها وينصرف، تعودت أن أختلس لحظات غيابه في اللهو على الدراجة، أعتلي الكرسي المبطن بالإسفنج، أميل بصدري وجذعي لأصل إلى البدَّالات التي لم تكن تتحرك إلا للخلف، متغاضيًا بقدر الإمكان النظر إلى هذا المخلوق البشع، خرج سعيد كالعادة من دورة المياه، لم يجدني على دراجته ذات الأعلام الحمراء الزاهية، والبوق ذي الصوت العالي الذي يشبه صياح البط على سطح جارتنا أم محمد. وجدني أقف في انتظاره:

- هل تريد شيئًا يا علي؟

- ماذا تعرف عن النعش؟

نظر إليَّ وابتسم، وشرح لي أنهم يأتون بالموتى ليحملوهم في هذا النعش الذي يرفعه الناس على أكتافهم إلى أن يضعوا الميت في قبره. كنت أظنه "يزوغ" لبعض الوقت. أدركت أخيرًا مهمته الجليلة في توصيل الموتى للمقابر. بداية من ذاك اليوم زادت مخاوفي من النعش وطلائه الأخضر وسيقانه العارية. أحد الأيام جاء سعيد إلى الجامع بعد صلاة

العصر وهو يضع يده على بطنه في ألم، دخل دورة المياه، خرج بعد برهة وما إن خطا إلى الباب حتى عاود التلوي واتجه لدورة المياه مرة أخرى. في المرة الثالثة، أعطاني مفاتيح قفل الدراجة وطلب منى أن أدخلها إلى الساحة ريثما يرحمه الله، سعدتُ كثيرًا، فالأمر عنده يبشر بوقت أطول للعب، أدخلتها الجامع، أوقفتها خلف النعش، ربطت سلسلتها الطويلة في حلقة تتدلى من خشب النعش وأحكمت غلقها بالقفل الكبير. أنحني لأحكم رباط المداس جيدًا، أقوم رافعًا ذيل الجلباب الأبيض ممسكًا به بين أسناني. أقفز من قاع النعش للدراجة. وددت أن أطرق البوق لكني كنت أخشى عامل المسجد. ضغطة واحدة بصوت عالٍ اهتز له النعش ثم وجدتُ أناسًا كثيرة تأتى تجاهي. اختفيتُ بسرعة خلف إحدى الأعمدة الضخمة. لا شك أنهم سيضربونني، أو يخبرون والدي ليتكفل هو بهذا الأمر.

جاء الناس في وجوم، اقتربوا من النعش، وضعوا بعض الأقمشة على أذرعه الخشبية، نزعوا الشرائط الحمراء التي كنت ألصقها فوق أخشابه الخضراء المقيتة. أدركت ساعتها أنه ميت يريد أن يذهب إلى

المقابر. انتبهوا للدراجة المربوطة في النعش، حاولوا فك السلسلة فلم يستطيعوا. بحثوا عن صاحبها فلم يجدوا أحدًا، فلم يرحم الله سعيدًا بعد! سألوا عامل المسجد فلم يتذكرها أو يتذكر صاحبها. المفاتيح معي، هل أعطيها لهم؟ دار في مخيلتي أبي وهو يكيل لي الصفعات والركلات، لا، لن أفعل. علا صوت أحدهم معلنًا أنها تخص سعيد صبي العجلاتي، ومن بعدها بدأت رحلة البحث عنه في كل مكان، نادوا عليه بصوت عالٍ دون إجابة، النعش تألق من أجل المهمة الموعودة، بينما الناس في جدال:

- أي واحد يركب الدراجة ونَشُدُّ النعش!
- وهل نضع للنعش عَجَلات؟
- إذن نرفع الاثنين معًا!
- ومن يقدر على ذلك؟
- باقٍ حلٌ أخير، نحمل النعش والسلسلة طويلة نسحب بها الدراجة، أو أي ولد يوجهها أثناء السير!

وافق الحاضرون في امتعاضٍ واضح على الفكرة، وشرعوا في البحث عن هذا الصبي الصغير، وأنا مختفٍ خلف أحد الأعمدة وأدعو الله ألَّا يروني. أطللتُ برأسي فانتبه أحدهم إلى وجودي:

- أمسكوه...

أسرع ناحيتي فركضت وأنا أصرخ طلبًا للنجدة. في منتصف الفِناء أمسك بي:

- اهدأ يا ولدي، هل تستطيع أن تقود الدراجة؟؟

- أنا؟ لا... نعم...

- هل تستطيع أم لا؟ رد بسرعة.

- نعم، وأنا معتاد على ذلك.

- إذن ستقودها خلف النعش!

- ألن يغضب الرجل الذي في النعش؟

- لا، يكفيه ما هو فيه!

- أخاف أن يقوم فيضربني.

- إذا قام سندافع عنك!

- هل تقسم بالله أنه لن يفعل؟

- يا ولد اسمع الكلام وإلا...

ظهرت بوادر بكائي، فأسرع الرجل وحلف ثلاثة أيمان بالله أنه سيمنع الميت من إيذائي. ذهبوا بالنعش إلى منزلٍ قريب، وضعوا الميت بالنعش ثم حملوه وساروا، وأنا فوق الدراجة من خلفهم، والناس في الشرفات منهم من يصرخ ومنهم من يخفي ضحكته، وأنا أوجه المقود يمينًا ويسارًا، وأحرك قدمي مع البدالات للأمام، حتى إن جارتنا أم محمد ظهرت من فوق سطح منزلنا، وهي تمسك بيدها بطة، ثم نادت على أمي لتشاهدني.

عاد الموكب إلى الجامع مرة أخرى، أقاموا صلاة وهم وقوف ثم عادوا وحملوا النعش. أكيد هم ذاهبون للمقابر. أريد أن أطرق البوق، لكنني أخشى أن يغضب الميت، والرجل الذي أقسم بحمايتي لم أره منذ أن خرجنا من المسجد للمرة الثانية. نظرتُ خلفي فإذا بأعداد كبيرة من

أهل المنطقة، استطعت أن أميز بينهم سعيدًا يعدو نحو النعش وهو يمسك ببطنه، لعل الله رحمه أخيرًا. كان ينادي بصوتٍ عال:

"الدراجة. الله يسامحك يا علي!"

ضغطتُ على البوق في قوة ليعلو فوق صوت سعيد وأنا أصيح:

- تحركوا بسرعة، الميت مستعجِل!

# ناظر الهوى

(١)

(الإسكندرية-عروس المدن-محطة القطار)

- هل يمكن أن تدلني على "ممدوح فضل الشريف"؟

- وهل يعمل معنا في "السكك الحديدية"؟

- لا، لكنه مقيم هنا في محطة مصر، هو فلاح طويل القامة، أسمر الوجه وأذناه كبيرتان قليلًا!

- تقصد "أبو صباح"؟

(هز رأسه في حيرة)

- هو نفسه، ناظر الهوى، ستجده هناك، يجلس بجوار مكتب ناظر المحطة.

كاد أن ينصرف؛ إلا أنه عاد في دهشة:

- هل تصدق يا بني، إنك أول شخص يسأل عنه منذ عشرين سنة!

(٢)

(في القرية)

نظر الحاج فضل للبنت أنوار وهي تلتقط الحشائش من بين شتلات الأرز.

- ولا صف طالع مضبوط يا بنت ال...، حرام عليكم الأجرة أنتِ وأهلك "التَمَلِّيَّة".

- والله مظلومة يا حاج، عندك ابنك ممدوح... اسأله... هو السبب.

نظر خلفه فإذا بالولد يمرق بعيدًا، اعتدل فلم يجد أنوار، اختفت هي الأخرى في آخر الحقل!

(٣)

(في القرية – ليلًا – ممدوح وصديقه حول "الراكية"، شعلة نار وقودها الحطب، يحتسيان الشاي)

- لكن عندي سؤالين لك يا ممدوح، أولهما: هو كيف تأتي بهذه الجرأة؟ أنا عن نفسي عندما أقترب من واحدة من العاملات وهي منكبة فوق الزرع، يرتعش جسمي كله ثم أجري على رأس الغيط وأراقب من بعيد. والسؤال الثاني: كيف ستتصرف إذا فضحتك واحدة منهن في يوم أو حملت منك؟. يا خبر! من الممكن أن يقتلك أبوك.

(٤)

(عند الفجر... في الحقل... يجلس ممدوح وحيدًا..).

..لا أهوى الحياة في قريتنا، أسراب الحمام تحرس الأراضي في النهار. تجول في دوريات ولا تحط بأبراجها إلا مع الغروب حيث ينثر الظلام نجومًا تراقب البيوت. سجن يستحيل الهرب منه.

(٥)

..منذ أن هرب ممدوح ولم يفلح في شيء. فكر في العودة مرات عديدة وفي كل محاولة يتوقف عند سلم القطار ويتراجع. جرب العمل

في المحطة، أيام في المقهى الصغير، أخرى مع الشيالين وأوقات يناوب مكان " كمسري" من العاملين على الرصيف إذا أراد الغياب لسبب ما مقابل غداء أو عشاء، ثم ينام في كشك خشبي شيده بنفسه خلف مخزن القطارات القديم. كل من في المحطة يناديه بناظر الهوى! ففي أثناء حركته الدؤوبة يستطيع أن يعرفهم، يقترب من أحدهم، يرتابون فيه إلا أنهم سرعان ما يرتاحون إليه، وتهدأ نظراتهم الحائرة وأعينهم الباحثة عن المجهول. صبية وصبايا هاربون من حب أو راحلون إليه. يسرد لهم قصته، وعجزه عن الرجوع. ربما يقضي معهم اليوم كله. يصاحبهم في جولة في محطة الرمل، على الكورنيش، وربما ذهبوا لتناول وجبة فول أو كبدة إسكندراني، ولا يتركهم إلا على سلم القطار، يلوحون له على وعد بلقاء آخر، لكن لا أحد يعود!

(٦)

هي الوحيدة التي فشل في إقناعها بالعودة. هل رغب في أن تبقى؟

(٧)

(في عشة ممدوح)

- وأين ستنام يا أبي؟

- المحطة واسعة.

(أمسكتْ الفتاة بيده)

- أرجوك... ألقِ عليَّ نظرة في الليل، لا تتركني وحدي!

(٨)

(في المحطة)

- شيء عجيب، وهذا سبب حزنك؟ فلتهرب أو تذهب في داهية. أنت صدقت أنها ابنتك فعلًا؟ كان اسمها... آه... تذكرت... صباح... اهدأ يا "أبو صباح!"

(٩)

(في ملهى ليلي)

رفضوا أن يسمحوا له بالانتظار في الغرفة على غيرِ العادة. سب ولعن من إصرارهم:

- أنا أبو أشرف، صباح التي تستأجركم هي زوجتي!

وسط محاولاته، سمع التصفيق والهتاف لصباح التي دخلت الرواق مهرولة مع فتاتين ألبساها "الروب" ليغطي جسدها المتعرق. دلفت لغرفتها، نظر نحو الحراس في تحدٍّ، أشارت إليهم فسمحوا له بالدخول. أسرع خلفها وأغلق الباب.

- هل كبرتِ على زوجك يا صباح؟ أم أنا الذي شِبت؟

اختبأت خلف ساتر تغير بدلة الرقص.

- ناولني لباس الرياضة يا ممدوح.

التقط بلوزة بيضاء وتنورة زرقاء قصيرة وتحرك ناحيتها. مدت يدها، ظل ممسكًا بالملابس، أطلت برأسها من خلف الساتر، أبصرت في عينيه جمالها ورغبته، نفس البريق اللامع في ظلام "العشة" حين جذبته نحوها في منتصف الليل، ارتطمت قدماها بطبلة قديمة، ناوَلتْها له فضحك ثم دقَّ برفق. يحاول الإمساك بيدها، تشدها بصرامة، صوت الإيقاع يتعالى في الصالة. لا يزال يراها وهي تتمايل في دلال وكأنها تتمشى في وحل مشتل الأرز، يعدو خلفها فتفر والحبوب تتناثر من حجرها في كل صوب. تتعثر في "المرتبة" القديمة المفروشة على الأرض، تسقط تحت قدميه.

- ناولني يا ممدوح. سأتأخر على الصالة.

- أريد أن أرى ولدي أشرف. مرَّ أكثر من عامين ولم تقع عليه عيني، وأنتِ تدورين من بلد إلى بلد.

- أشرف ليس ولدك.

أخذته المفاجأة فلم يرد.

- صدقني.

- وما كان بيننا؟

- أنا حامل من قبل أن أراك في المحطة.

(١٠)

- قم معي يا أبي.

أمسك بيده التي تيبست على قصاصة من صحيفة يومية قديمة. يرتدي "أفارول"-بزة زرقاء- كالتي يرتديها عاملو السكك الحديدية، ويمسك بسيجارة غير مشتعلة في اليد الأخرى. سحبه في رفق من فوق الكرسي البلاستيكي الملاصق لمكتب ناظر المحطة.

- كانت أمنيتي أن ألتقي بك منذ زمن.

تأمل في شغف وجهه العجوز النحيل الذي صنعت التجاعيد فيه أخاديد طولية، والأنف المدبب الذي يراه حين ينظر لنفسه يوميًّا في المرآة.

- أنا ابنك حسن. ابنك من أنوار.

بدأ ممدوح يعود لوعيه. نظر ناحية الصوت الذي يتسلل إلى أعماقه ويخرجه من نفق طويل. أرجعَ رأسه للخلف قليلًا. تمعن في ملامح الشاب الذي احتواه بذراعه المفتول داخل "البالطو" الطويل الذي يرتديه. يذكره بفتى هرب بعمره من الثأر بعد أن أوحل صبية في حقل الأرز منذ زمن بعيد. تركه ينتزع القصاصة من يده، كان فيها صورته مع امرأة غارقة في دمائها وخبر يقول "الحكم بالسجن خمسة عشر عامًا على عاطل حاول قتل مطلقته الراقصة". توجها ناحية القطار "القشاش" عند رصيف المحطة الأخير، صعدا السلم، كانا يتراءيان من بعيد كجسدٍ واحدٍ يحمل رأسين، يُقبِل كل منهما الآخر.

❋ ❋ ❋

# وجوه في الترام

استقل "مسعد" الترام من محطة الرمل، رتب قميصه الوردي داخل البنطال الجينز الأزرق، تخير مقعدًا خاليًا بجوار النافذة، يخطط للذهاب إلى محطة مصطفى كامل، الطريق قد يستغرق فوق الثلاثين دقيقة لاسيما وأنه وقت الذروة. قرر أن يأخذ غفوة قصيرة حتى يصل. ثوان قليلة وفغر فاه وارتدَّ رأسه للخلف على المسند الإسفنجي غاطًّا في نوم عميق. مع تحرك العربات ركبت "تحيَّة"، بحثت عن كرسي خال. جلست في مواجهة مسعد تمامًا. جففت عرقها المنهمر بِكُمِ عباءتها. أخرجت رأسها من النافذة قليلًا بحثًا عن المزيد من الهواء. نكزتها سيدة عجوز تجلس جوارها "انتبهي على رأسك يا ابنتي، أعمدة الكهرباء قريبة، الله يحفظك، أعتقد أنك لست من سكان الإسكندرية!"

لم ترد عليها مباشرة، انشغلت في محاولة فك الالتصاق بين طبقات ملابسها المتكومة فوق بعضها، لم تكن تتوقع أن يكون الجو رطبًا وخانقًا

بهذا الشكل. ناهيك عن الرحلة التي قطعتها بالقطار من مدينة كفر الدوار إلى الإسكندرية، ثم السير عبر شارع النبي دانيال متوجهة نحو محطة الرمل. تحمد الله إنها تركت طفلتها الرضيعة مع أخواتها في رعاية أمها ولم تصحبها معها.

- شكرًا يا حاجة. الغريب أعمى ولو كان بصيرًا.

ردت عليها العجوز:

- لا عليك يا ابنتي، أين ستنزلين إن شاء الله؟
- عند كلية الطب، هل هي بعيدة؟
- أبدًا يا حبيبتي، بعد محطتين من هنا.

ودت تحيَّة لو تسترخي لبعض الوقت. انتبهت للشاب الغارق في النوم في مواجهتها. تعجبت كيف استطاع النوم وسط هذا الجو الحار والصخب الذي يعج به المكان. لا بد وأنه طيب القلب، ترى هل هو متزوج؟ لم تتمكن من رؤية خاتم الزواج في أصبعه. من المؤكد أنه يعامل زوجته بلطف وحنان. تحسست ذراعيها، تؤلمانها من إثر عناق رجب

ليلة أمس. لا تعرف سر هوسه بالعنف أثناء لقائهما. تحاول أن تتذكر مرة عابرة لم تتألم فيها دون جدوى، وجع لا يوصف، تخفي دموعها وإن لم تتمكن من كتم آهاتها التي يظنها الأسطى رجب من نتاج فحولته!

- مفتري يا أمي... حياتي معه عذاب!"

- اصبري يا ابنتي... كل النساء على ذلك والرجل مهتم ببيته وعياله ويأتي لك بلقمتك حتى عندك!

- تقصدين أن أصبر مقابل لقمتي يا أمي؟!

ولم تعاود الشكوى لأمها. الترام يهتز مع مروره أمام مسجد ضخم، مئذنته عالية وبها ساعة كبيرة. سألت العجوز:

- هل هذا جامع سيدي المرسي؟

- لا يا ابنتي... هذا مسجد القائد إبراهيم... جامع سيدي المرسي أبو العباس في بحري.

كانت تخطط لزيارة سيدي المرسي. عقدت النية على قراءة الفاتحة له، والتوسل به إلى الله أن يجبر خاطرها. تتذكر يوم ذهابها لضريح

سيدي شحاتة الذي ينحدر من نسل آل البيت في بلدهم كفر الدوار، يومها جلست تبكي وتدعو الله أن يفك كربها. لم تجد من تتحدث إليه بعد أمها، فحماتها سيدة قوية ولن تقبل كلمة في حق ولدها، وربما توغر صدره فيطردها مع بناتها الثلاث خارج البيت. تركت مبلغًا من المال في صندوق النذور ثم حملت رضيعتها وعادت للمنزل. ولم يمر ذاك النهار إلا وقُذِف في قلبها بعض النور. قبيل المغرب دق بابها، فتحته لتجد أمامها ابنة خالها شفاء.

شفاء... ربما الوحيدة في عائلتهم البسيطة التي واصلت تعليمها وتخرجت من الجامعة. درست في كلية الصيدلة، وتزوجت زميلًا لها ويقيمان مع أهله في المنصورة، ومن حين لآخر تأتي لزيارتهم في كفر الدوار. رأت شفاء حالة ابنة عمتها المزرية. أقسمت عليها أن تخبرها بما فيها ومع إلحاحها فتحت لها تحيَّة خزائن أسرارها وروت لها كل شيء بالتفصيل.

ربتت شفاء على كتف ابنة عمتها. وضعت قبلة على رأسها ثم شرعت في تفسير الأمر لها.

"حبيبتي... العيب ليس عندك!"

فغرت تحيَّة فاهها من الدهشة، كل ظنها أنها هي السبب لأنها ضعيفة البنية. أوضحت لها شفاء أن رجب يعاني من عيب خلقي في جسده وذاك هو سر شقائها، وحتمًا هو يعي ذلك الأمر، كما أن مثل تلك الأمور قد تكون من أسباب فسخ عقد الزواج شرعًا.

- يا مصيبتي! فسخ؟ تقصدين الطلاق يا بنت خالي... وعيالي؟"

طالت الجلسة وانتصف الليل. عاد رجب من عمله في ورشة صناعة أبواب الألومنيوم. سلمت عليه شفاء ثم غادرت لمنزل أبيها في نفس الشارع. تركت لقريبتها عنوان طبيبة نساء في الإسكندرية، وزوجها هو الآخر جراح متمرس. أخبرتها بضرورة زيارتهما وإجراء الفحوصات لها ولزوجها.

لم يغمض جفن تحيَّة تلك الليلة، ولا الليلة التي تلتها. لم يقترب منها زوجها، تحججت له بمباغتة عادتها الشهرية. كل ما يهمها هو كيف تقنعه بأنه مريض وفي حاجة لعلاج؟ أول ما سيقفز لذهنه هو طريقة

معرفتها بهذا الأمر، فربما يظن فيها السوء، وإن أخبرته عما دار بينها وبين ابنة خالها ستكون مصيبة أكبر، فقد يشَهِّر بها ويتنازع مع خالها وتصير فضيحة.

- كلية الطب المحطة القادمة... اجهزي يا ابنتي.

قامت تحيَّة نحو الباب. أخرجت قصاصة من حقيبة يدها بها عنوان طبيبة النساء. قررت أن تذهب وحدها إلى الطبيبة فربما تجد لها حلًّا، تأملُ أن تتمكن الطبيبة من التعامل مع جسدها المهترئ كي تتحمل حياتها بدون ألم. لكن هل ستنجح في ذلك؟ ألقت نظرة أخيرة نحو مسعد الذي كان ما زال غارقًا في نومه، فرت دمعة صغيرة من عينيها، ثم نزلت من العربة.

* * *

..في محطة كلية الطب ركب "باسم" وسط جمع من الشباب. اندفع نحو المقعد الشاغر في مواجهة مسعد. احتكت ركبتاه بركبتي مسعد الذي أفاق قليلًا. اعتذر له باسم وابتسم في رفق. دق قلبه حين ربت

مسعد على فخذه في تودد قبل أن يعود ليكوم ذراعيه على حافة النافذة ويضع رأسه عليهما ويغلق عينيه. تأمل القميص الوردي والبنطال الأزرق، زاد قلبه في الخفقان، حاول أن يتماسك. غلى الدم في رأسه. كيف له أن يتخلص من هذا الإحساس؟ إنه ينجذب بشكل غريب نحو الرجال. تنتابه رغبة ملحة في التقرب إليهم. نار حامية لا يقوى على تحملها. أقسم لنفسه مرات عديدة على أن يقاوم هذا الشعور بلا فائدة. انهار ذات ليلة أمام أمه، وأفضى إليها بما يشتعل داخله. انهارت هي الأخرى بين يديه، لكنها صباح اليوم التالي صحبته لطبيب نفسي دون علم أبيه. آه لو عَلِم أبوه... ماذا كان سيفعل معه؟ يكفي وقع الكلمة وحدها عليه. ابنك منحرف، ويتلقى علاجًا نفسيًّا. هل كان سيقتله بيده؟ أم يحمله ويلقيه في مياه البحر المالحة. البحر الذي طالما رافقه إليه طفلًا ومراهقًا. يستيقظان قبل أذان الفجر، يتوجهان إلى مكان أبيه المحبب للصيد في سيدي بشر، عند التجمعات الصخرية. يمرون على جارهم الخمسيني الأعزب الذي يرافقهم بسيارته ولا يعودون إلا بعد الغروب. ساعات طويلة من التركيز والصبر والمحاولات، والغلام حين

يشعر بالملل يستأذن أباه في نزول البحر. يرفض، ثم يعود ويقبل عند مصاحبة الجار له، هكذا يطمئن باله، وينهمك في الصيد. الموج الهائج يصرخ فوق صياح الغلام، والبحر الغاضب يدفع برأس الرجل في صخرة فتفلقها نصفين، وجسد الصبي المتهتك يسحبونه بين الحياة والموت. يظل أيامًا راقدًا حتى يشفى وما فطنوا إلى جرح براءته الدامي دون علاج.

انسابت نغمة عالية من تليفون باسم. أجاب في سرعة: "نعم... من أنت؟ لا أعرفك؟ تجلس في مقهى الإبراهيمية على سكة الترام. مستعجل؟ عشر دقائق. سلام".

"أين الطبيب؟ يحتاجه بشدة. بدَّل رقم هاتفه مرات عدة ولا يعرف كيف يحصلون عليه؟ الطبيب لا يجيب، هل يذهب؟ لا لن يفعل، شخص جديد لا يعرفه، قد يعامله بعنف. سيذهب مع هذا الشاب النائم، إنه يثيره بشدة، كم يصبو إلى ذاك الإحساس الخيالي بالراحة في نفسه والخدر في أعصابه".

حاول باسم أن يوقظ مسعد بدفعة في ركبتيه.

- هل تبقى الكثير على الإبراهيمية؟؟

تيقظ مسعد، أطل من النافذة.

- المحطة المقبلة.

- شكرًا!

وصل الترام محطة الإبراهيمية. هَمَّ عدد من الراكبين بالنزول. تمسك باسم بكرسيه. ثبت قدميه في الأرض. تعرق جسده بشدة. يعلو جرس هاتفه النقال. أغمض عينيه. حاول أن يصرف تفكيره في شيء آخر. باكر لديه مقابلة عمل في شركة في برج العرب. بدلة جديدة. نسرين جارتهم، خطوبتها الأسبوع القادم. يحبها. أختها الصغيرة طالبة الثانوية العامة. أخوها الرشيق لاعب التنس. العجلات اللعينات تأبى التحرك. إشارة مرور. يهتز جسده. أُغلِقَت الأبواب. تتعلق عيناه بالمقهى الملاصق للسكة الحديدية. شاهد رجلًا في الأربعين تقريبًا أمام المقهى ينظر بساعته ويتفحص الركاب النازلين للمحطة. اندفع الترام

للأمام مغادرًا الإبراهيمية. اختفى الرجل خلف صف من الأشجار والدكاكين. تنفس بعمق. تراخت أعصابه المشدودة.

* * *

..في محطة سيدي جابر صعدت فتاتان متأنقتان مغنجتان، يبدو أنهما طالبتان في الجامعة، تحملان بعض الكتب والمذكرات. لم تحاولا البحث عن مكان للجلوس، فقد كانت العربة متكدسة عن آخرها. وقفتا جوار سيدة عجوز جالسة في مقعدها تراقب مَنْ حولها في ابتسامة راضية. شرعت إحدى الفتاتين في حل غطاء الرأس وفتحت حقيبتها المكتظة بأدوات الزينة لتضعها فيها، إلا أنها تراجعت في اللحظة الأخيرة، وضعت كفها على فمها تمنع بها صيحة دهشة ممزوجة بالرهبة!

- ما لك يا فتنة؟، سلامتك!

- أبدًا... الشاب النائم بجوار النافذة، حسبته أخي خالد!

- أخوكِ؟! وما المشكلة؟

شرعت فتنة في تفسير الأمر لصديقتها. فتنة كادت أن تخلع غطاء الرأس، وتلك مشكلة كبرى فهي من قرية تتبع مدينة دمنهور. وقريتهم منغلقة على نفسها، ونظرة الناس في مدينتها للبنت المتبرجة أنها منفلتة، وقد يؤثر ذلك على حظوظها في الخطبة والزواج. لذا هي لا تجرؤ على هذا الفعل في قريتها أو حتى في دمنهور بأكملها. لكنها في الإسكندرية، وحيث المدنية الحقيقية والحرية، فهي في مأمن من أن يعرفها أحد.

- الحمد لله، إنه ليس هو...

- عندك حق، لكني قلقة جدًّا! هو يشبه أخي بشكل غير طبيعي!

طال الانتظار في سيدي جابر. تساءل الركاب الذين زاد عددهم بشكل كبير. أخبرهم رئيس العربة أن هناك عطلًا في الكهرباء والطريق مغلق، قد يستغرق الأمر نصف ساعة على الأقل لمواصلة السير. انتبه مسعد من غفوته الثقيلة على أصوات الهرج والسباب. نظر حوله متعجبًا. نظر في ساعته، مر أكثر من أربعين دقيقة على بداية رحلته. قرر النزول ومواصلة الطريق على قدميه، فمحطة مصطفى كامل ليست ببعيدة. ربما تستغرق عشر دقائق من السير. عدل من وضع قميصه

الوردي في البنطال الجينز الأزرق. فرد ظهره المتيبس من جلسته الطويلة. نزل على الرصيف متوجهًا نحو الشارع العام. أدارت فتنة ظهرها له وخبأت وجهها خلف دفتر المحاضرات، ثم أسرعت وجلست مكانه. تبعتها صديقتها وجلست في مواجهتها مكان شاب أسمر صغير السن. نزل في أثره وهو يتحدث في الهاتف، ثم سار في الاتجاه المعاكس ناحية محطة الإبراهيمية. الترام ما زال ساكنًا في سيدي جابر، بينما مسعد قد أوشك على الوصول لوجهته، تاركًا خلفه الجو الخانق والعيون المرتابة والكثير من الآمال والظنون!

❋ ❋ ❋

# شادية

(١)

جميلةٌ، رغم الجروحِ التي تغطي وَجْهَكِ الحزين، أحبك، غارقٌ في غَرَامِكِ، لن أسمح لك بالفرار مرة أخرى، عيناك النصف مفتوحتين، لا أدري، هل هما للحياة أم للموت أقرب؟ ذاك النور المتسلل من بين جفنيك، أتحتضنه كفاي المتضرعتان، أم سيخبو للأبد؟

(٢)

تردد المؤلف كثيرًا قبل أن يدرج تلك القصة في مجموعته الأخيرة. هو كما يرى نفسه كاتبٌ واقعي، يجد في الواقعية ما هو أشد دهشة وإمتاعًا من المدارس الأخرى في الكتابة، لكن هذه القصة ذات طابع خاص، فهي قد حدثت بالفعل، بل إنه شهد بنفسه الكثير من فصولها. في النهاية قرر نشرها مع بعض التغيير في أسماء الشخصيات وأبقى فقط على اسمه، أدهم، أو كما تعود أن يدعوه أبطال القصة "أبو الحنان!".

(٣)

- شادية؟

- وهل تعرفها يا حبيب أمك؟

..من الشرفة، استغرقا في متابعة الحادثة، رجال الشرطة في نافذة الطابق الأول للبناية المقابلة لمنزلهم حيث يقع مكتب شركة "الأوائل لطباعة الكمبيوتر"، والذي هوت منه شادية إلى الشارع، موظفات المكتب غارقات في البكاء، يحطن بعربة الإسعاف التي على وشك المغادرة للمستشفى، يوزعن أنفسهن بين سيارة المهندس محمد وتاكسي أجرة، بينما قفزت سعاد إلى الإسعاف لترافق صديقتها.

(٤)

- سعاد... اقتربي قليلًا...

ردت عليه في دلال وهي تحمل بعض الأوراق المطبوعة حديثًا لوضعها في ملفاتها:

- أستاذ صالح، الساعة الثالثة والبنات على وشك الوصول، غير أننا مع بعضنا من أول اليوم.

- لا، المكتب له مذاق مختلف. ناوليني ورق "أدهم"، سأقرأ وأنتِ تكتبين وننتهي بسرعة.

- مَنْ أدهم؟

- الأستاذ أدهم يا بنت. المؤلف أبو الحنان. كلامه حلو ويضبط الدماغ.

- آه... تذكرت. الورق لدى شادية. احذر لأنها وصلت...

دخلت شادية متعرقة ولاهثة الأنفاس، يبدو من الحقيبة التي تحملها أنها كانت تقوم بالتسوق، ابتهجتْ لرؤية صالح، صاحب الشركة، يملك من العمر خمسين عامًا دون خُصْلة شيب واحدة، يجلس في مكان المهندس المشرف، تقدمت نحوه:

- أستاذ صالح، مساء الخير. هل من الممكن أن أستأذن اليوم ساعة واحدة فقط قبل موعد الانصراف؟

نظرت بطرف عينها ناحية سعاد التي كانت تتابع الحوار، ثم أضافت:

- عندي زيارة مهمة الليلة... من فضلك!

- حسنًا، لكني أريدك في أمر مهم أولًا، وحدَكِ!

(٥)

- جاوبني يا ولد، من تكون هذه البنت؟

هو لا يعرفها بالشكل الذي تظنه أمه. يراقبها من يوم حصولها على الوظيفة منذ عامٍ ونصف، انقطعت خلالهم عن العمل ثلاثين يومًا. هي شادية، مكتبها مقابل النافذة التي تطل عليها شرفة منزلهم. تعمل غالبًا في فترة ما بعد الظهيرة من الثالثة عصرًا إلى العاشرة مساءً. تأتي مرتدية عباءةً سوداء ثم تستبدل بها بنطالًا جينز أزرق ضيقًا وتي شيرت. تشرب النسكافيه الذي تعده في حجرة المهندس المشرف ذات الجدران الزجاجية والمكيفة الهواء. تتناول العشاء وحدها في الثامنة مساءً، تتبع

جدولًا منتظمًا، يوم السبت بعض المخبوزات، الأحد والثلاثاء كشري مصري، الاثنين والأربعاء فول وفلافل، أما يوم الخميس فهو الوحيد الذي تتشارك فيه مع الأخريات لشراء "حوواشي"، وهو نوع من الخبز المحشو باللحم المخلوط بالبهارات، معروف فقط في محافظة البحيرة والإسكندرية.

..يستطيع تمييز صوتها، ضحكتها الحادة العالية وحتى مزيل العرق الذي تستخدمه كل ساعة تقريبًا، وتنثره حولها على سبيل المداعبة، لقد بذل مجهودًا شاقًّا ليتعرف على نوعه. تعمد الذهاب لمكتب الطباعة من أجله ذات يوم بحجة كتابة بحث للجامعة، ارتدى يومها أكثر ملابسه أناقة وكأنه في حفل زواج أحد الأقارب، يملك من هذا العطر حاليًا عدة عبوات، ومع كل مرة تستعمله شادية، يفتح دولابه ويرش منه على بدنه ويتنشقه بعمق.

- انطق يا حزين...

- واللهِ يا أمي سمعتهم ينادون اسمها الآن فقط... ربنا يستر...

(٦)

ارتفعت نغمة الهاتف النقال في الحقيبة الملقاة جوار سرير المستشفى، تتوقف لبرهة ثم تعاود تارة أخرى، تعلو فوق صوت أجهزة العناية المركزة، الأمر الذي يخلق جوًّا من الرهبة والتوجس، إلا إنه يحمل معه بعض الأمل، الفتيات يلتصقن بالحاجز الزجاجي للغرفة الممنوع دخولها باستثناء الأطباء والممرضات اللواتي يلتففن حول شادية، يغرسن في جسدها بعض الإبر ويمددنها بالمحاليل الطبية في انتظار أخصائي العظام الذي سيقوم بتجبير عدة كسور في ساعدها وقدمها.

"الحمد لله أنها على قيد الحياة"، هكذا قالت الممرضة. "الارتفاع المنخفض والمظلة التي فوق المحل أسفل العمارة خففا الصدمة"، أضاف المهندس محمد الذي لم يفارقها منذ اللحظات الأولى للحادثة، وما زال الهاتف في رنين متواصل.

(٧)

بين اليقظة والحلم... بين الألم والرغبة في الانطلاق... رقدت شادية... تتردد من حولها أصواتٌ متداخلة، أهذا هاتفها؟ يلفت

المهندس انتباهها أن الاتصالات ممنوعة داخل المكتب، لم يكن يومها الأول، وهي على دراية بالتعليمات، لكنها تتعمد الاتصال وتلقي المكالمات والدخول إلى حجرته لعمل النسكافيه مستخدمة بعض أدواته متعللة بتعطل صانع القهوة الخاص بها، أو الجلوس في مقعده لفترة قبل وصوله بزعم التمتع بمكيف الهواء المحرومات منه هي ورفيقاتها.

..هل التفت إلى الجينز الضيق؟ هل أثاره عطرها الجديد؟ لقد كلفها وحده نصف راتبها تقريبًا هذا الشهر، وما تبقى ذهب لأبيها على حسب الاتفاق بينهما، مما اضطرها لتغيير جدول طعامها ليقتصر على الفول والفلافل لشهر كامل.

...اليوم... وجهها أكثر احمرارًا وتأنقًا حيث قامت بتَنميق حاجبيها وإزالة الشعر الزائد منهما، بمساعدة رفيقة عمرها سعاد. هما صديقتان منذ أيام الدبلوم التجاري الذي أنهيتا دراسته وحصلتا على شهادة لم تصلح لشيء إلا للعمل كبائعات في محلات الملابس والعطور، وأخيرًا في مكتب الطباعة الذي سبقتها إليه سعاد في الفترة التي رفضت هي فيها العمل تمردًا على أبيها الذي اعتاد اغتصاب أغلب راتبها الشهري بإيعاز

من "نسرين" زوجته، ولم تَعُدْ إلا مع قرب زفافها على مسعد ابن خالة نسرين. هل يأتي يوم يشعر المهندس بما تفعل من أجله؟ هل سيظل هكذا غير مبالٍ؟؟

..مرة واحدة لاحظت اهتمامه عندما حضر المؤلف "أبو الحنان". يُملي قصصه بنفسه بسبب سوء خطه وتجنبًا للإعادة وتضييع الوقت، روت ما جرى لسعاد التي حصلت يومها على راحة: (كنت مشغولة بالكتابة وفجأة وجدت المهندس محمد أمام شاشة الكمبيوتر. دار نقاش حاد بينه وبين المؤلف وأوشكا على التشابك بالأيدي لولا تدخل البنات. غضب المهندس مما يمليه المؤلف، أعدتُ قراءته فشعرت بالخجل الشديد، حوار بذيء فاضح، كيف لم أنتبه إليه؟ هل انشغالي بتنسيق الكتابة أم هو أمرٌ آخر؟ من ساعتها أصبح يرسل الأوراق مع الأستاذ صالح الذي تربطه به صداقة قديمة وهو الذي أطلق عليه أبو الحنان، نظرًا لأن كتاباته تثير عنده مشاعر الحب والحنان!).

موقفٌ آخر ذكرتها به سعاد، عندما جاء أحد شباب المنطقة لكتابة بحث وأصر على أن تتولى شادية الأمر بنفسها بالرغم من انشغالها في

أعمال أخرى، انفعل المهندس محمد وطرده، غير ذلك كان وجهه جامدًا كالصخر، وردود أفعاله أشد برودة من مكيف حجرته، لم يكترث حين أَخْبَرَتْهُ بزواجها من مسعد، ومنحها إجازة أسبوعين بنصف أجر مع كلمة "مبروك" ولم ينتظر ردها "الله يبارك فيك"، وألصق وجهه بالحاسوب، وحين انفصلت عن مسعد بعد ثلاثة أشهر من الزواج، لم يَبْدُ عليه أي دهشة أو يسألها عن السبب، وأعطاها راحة أسبوعين آخرين بأجر كامل. للحظةٍ قصيرةٍ أحست يومها برغبته في قول شيء ما ثم تراجع، هل حقًّا يدللها كما تتهامس زميلاتها؟ (لم يكن الأستاذ صالح ليفعل مثله، وربما صارت خارج العمل كله) الهاتف يرن مرات ومرات، لم تعد تصغى إليه، أو تعي ما يجري.

(٨)

- "طيب يا شادية. الساعة تعدت الحادية عشرة مساءً، لم تعودي للبيت أو تردي على أبيكِ، قسمًا بالله ..."

ابتلع كلامه، فقد حلف سابقًا على المصحف على عدم الاقتراب منها أو أذيتها أو حتى الحصول على جنيه واحد من أجرها إلا إذا

تطوعت هي، وبنت أمها تمنحه نصف الراتب فقط! لكنه يسامحها، فكفاها ما ألمَّ بها بسببه أو بالأدق بسبب نسرين زوجته الأخيرة والتي تكبرها بسنوات قليلة. هي التي خططت لزواجها بمسعد، الشاب العامل في ورشة الميكانيكا في شارعهم، أخبرها أنه لا يروق له، خاصة مع تناوله للمخدرات، (وأنت أيضًا يا حاج حسن تدخن الحشيش وتعيش بشكل عادي)، هكذا كان ردها! إلحاحها جعله يضغط على شادية والنتيجة طلاقٌ بعد ثلاثة أشهر من الزواج. يحمد الله إذ هو لم يصغ لنسرين عندما أرادت ابنته كتابة "مطلقة عذراء" في وثيقة الطلاق. ثارت وقالت إنها فضيحة لها ولأسرتها وهددته برفض ابن خالتها لموضوع الطلاق برمته. الغريب كان في تلبية الشاب لكل طلباتهم! هل أحبها؟ ومن الذي لا يحب شادية؟ ابنته الوحيدة، المتعلمة، المكافحة، وحدها البومة نسرين لا ترتاح لها. يعاود الاتصال دون جدوى. ترى ماذا حدث؟ يسمع جلبةٌ على الجانبِ الآخر...

- ألو... مَنْ أنت؟ المهندس محمد! أين شادية؟؟

(٩)

- هل تحبينه أم تريدينه؟

فهمت شادية ما قصدته سعاد بسؤالها الخبيث. اختلطت أحاسيسها. أحبته في البداية، لكن إعراضه عنها جعلها تتمناه، تريده بأي شكل. لا تستوعب حقيقة ما يجول بداخلها، أفكار مضطربة، زواج وطلاق، شقاء العمل وحلم الراحة، وحدة قلبها وآمال البيت والأسرة، حبٌ ورغبة، ثورة الأنثى وقلة الحيلة، شماتة نسرين وضعف أبيها الحاج حسن.

- ردي عليَّ: هل تحبينه أم تريدينه؟

(١٠)

توقف قلب شادية عن الخفقان، شحب وجهها وهرب الدم من أطرافها، انفلت من يدها كيس ملابس النوم الجديدة، لم تقوَ على الوقوف، دار بها المكتب، الجدار الزجاجي، الأوراق وأجهزة الكمبيوتر،

كوب النسكافيه، المراوح الكهربية، كل شيء يدور، كيف وصلت صورها الخاصة إليه؟ التقطتها سعاد بتليفونها الجديد والليلة موعدهما الثاني. وَعَدَتْها بالمحافظة عليها حتى تتخذ قراراها، ساعتها فقط سترسلها إلى من شغفها حبًّا. كيف انتهت إلى صالح؟ وكيف يجرؤ أن يقايضها على شرفها؟ تزداد سرعة الدوران، تتملكها رغبة شديدة في التقيؤ، تحاول الوصول إلى دورةِ المياه، تضلُ الطريق قرب النافذة، ستلقي ما في معدتها هناك، لم تسيطر على نفسها، سقطت في فراغٍ مظلم، وسكون حسبته الموت.

(١١)

كقطار بضائع قديم يتمايل في حركته البطيئة، عادت شادية بذاكرتها إلى الوجود. الضوء يؤلم مقلتيها فلا تَقْوَى على فتحهما، صورة ضبابية رأت فيها سعاد والمهندس محمد ونسرين والحاج حسن، تشعر بثقل في قدميها وذراعيها، صداع شديد يملأ رأسها. تمكنت من تحريك

أصابعها، تدرك ما حولها بشكل أوضح، المهندس محمد يصلي من أجلها بصوت خافت، يقومُ ليُطمئِن أباها على وضعها الحالي وصحتها "عدة أسابيع وتصبح أفضل، الرأس الحمد لله سليمة". صوتٌ قديم غاب منذ فترة طويلة أَطَلَّ بالغرفة، المؤلف إياه "أبو الحنان" جاء يسأل عنها، طيب القلب، رفعت جفنيها قليلًا، برفقته صالح الذي سمعت الألم في نبراته "ألف سلامة عليكِ يا شادية، سلامتك يا بنتي". انفرجت شفتاها بابتسامةٍ خفيفةٍ، ثم غَرَقَتْ في سُبَاتٍ عميق.

❋ ❋ ❋

# زقاق المجاذيب

(١)

كان يشبهني تمامًا في تلك اللحظة، يسير شاردًا، جسدٌ بلا روح، لذا تيقنت أنه سينجح في مهمته ولن يكشف أمره أحد.

(٢)

هل هذا ما كنت أرغب به حقًّا؟ هل أصبحت الآن حرًّا طليقًا، أم إنني صرت سجينًا آخر في زقاق المجاذيب؟

(٣)

تزداد سرعتي مع نزولي منحدر شارع جامع التوبة، كدت أن أسقط على وجهي بسبب إرهاق السفر وحرارة الطقس. الشمس على وشك الغروب، امتد العمل في رصد ومراجعة أوراق الطلاب فوق ساعات

الدوام الرسمي حتى كدنا نتساقط من الإعياء وضعف التركيز، توقفتُ لأرتاح قليلًا في ظل عمارة التأمين الصحي جوار كشك "عم صلاح" بائع الصحف، ولأطالع آخر الأخبار على عجل.

..رأيته هناك، تجمدت في مكاني من الدهشة، فركت عيني فربما غبش بصري، لم يتغير الأمر، شيء مذهل، نفس الطول، تقاسيم الوجه، اللحية غير المهذبة وإن كانت أكثر غزارة، العمر في نهاية الثلاثينات، كأنه أنا، يتفحص بعض عناوين الكتب، حاولت أن أتكلم معه فلم يجبني، سألت عنه "عم صلاح" وهو يتهيأ لغلق الكشك.

"هذا رياض، الشيخ رياض، من المجاذيب وساكن الزقاق المجاور"

يا ربي! كيف ذلك؟ إنه يحمل نفس اسمي؟! أقسمت ألا أترك هذا المجذوب إلا بعد أن أعرف حكايته كاملة.

(٤)

"لا يوجد مخلوق يملك الحرية المطلقة، إن الإنسان قد يملك حرية الحياة، لكنه لا يملك حرية الموت!"

(٥)

رافقت رياض شهرًا كاملًا، اقتربت فيه من حياة المجاذيب، ووجدتهم أكثر قاطني الشارع حظًّا، فلا تتبعهم الحكومة لتزج بهم في السجون أو يطاردهم المخبرون طوال الوقت مثل الشحاذين وأطفال الشوارع، فهم لا يثيرون المشكلات عادة، ولا يتنازعون أماكن وقوفهم أو يحاولون السرقة، بل إنهم يتلقون عطف المارة ويحصلون على الطعام دون عناءٍ كبير من أصحاب المطاعم الذين يسارعون بتقديمه لهم، ولا يطلبون منهم الدعاء أبدًا، فالمجاذيب لا يدعون إلا بالفقر، ويكفي أن يرحل الواحد منهم وفمه ممتلئ بالطعام دلالة على الرضا.

وهم في أحوال بين الجنون والحكمة، تجري على ألسنتهم النبوءات ويتبرك بهم العامة، يتنقلون من بلدٍ لآخر خلف حفلات الموالد، ويتجمعون في جنازات الصالحين خاصة إذا كان المتوفى من أقطاب الصوفية، لا تعرف من يدعوهم لكنك تجدهم بالعشرات، يلتفون حول النعش ويتبعون الجنازة إلى المقابر، ثم يتفرقون في لحظات ويختفون كمن نزلوا من السماء ثم عادوا إليها!

كذلك اكتشفت أثناء مصاحبتي له ممارسته لبعض العادات الغريبة! كان يحب أداء صلاة الفجر في مسجد "سيدي عطية أبو الريش". يطوف حول مقام سيدي عطية، يستند بظهره إلى الضريح، يهز رأسه وهو يتلو أذكار الصباح، أجلس جواره حتى طلوع الشمس أو أن يطردنا عامل المسجد بعصاه! نسير مع نسمات الصباح، أحكي له عن حياتي وهو يسبق خطواتي ويهز رأسه، حتى تعلو في الأفق أجراس كنيسة السيدة العذراء، يقفز المجذوب فرحًا مع دقات الناقوس ويهرع في اتجاهها وأنا أتبعه متعجبًا حتى نصل أبواب الكنيسة فيندس وسط الداخلين دون أن يمنعه أحد! فهمت أنه معتاد على ذلك وهم يعرفونه جيدًا. أسمعه وهو يزعق "يا رب" وأصوات من خلفه رجال ونساء تردد "يا رب يا خال يا رب". أنتظره حتى انتهاء القداس، وحين يخرج أجد حول عنقه باقة من الورد وفي يده تفاحة يقضم منها في نهم، وكيس القماش الملتف حول عنقه يزخر بالحلوى.

كان الشيخ رياض (كما يدعوه الناس في زقاق المجاذيب) مفعمًا بالحيوية، يجوب الطرقات طوال النهار، يقفز في مشيه وكأن ثمة نغم راقص يتردد في أذنيه. يتأمل وجوه السائرين بدقة، يحدثهم دون أن

ينتظر منهم الرد، لا يؤذي أحدًا، أحيانًا فقط تمتد يده لتربت على كتفٍ أو تصفع قفًا عريضًا لأحد المارين جواره! وكم تعرض للأذى والضرب في مقابل ذلك، إلا إنه لم يتوان عن تكراره، وفي الليل يأخذ مجلسه في زقاق المجاذيب، يفترش أوراق "الكراتين" السميكة، ويتدثر ببطانيات ثقيلة. يستغرقه التأمل، ويبدأ في الكلام الرزين، ليظهر شخص آخر أكثر عمقًا وهدوءًا. قلت لنفسي: "أظن أن هذا هو الوقت المناسب لأعرض عليه الفكرة التي تلح عليَّ من لحظة لقائي به، لكن هل يقبل؟"

(٦)

روعة الشهوة في عفويتها، انطلاقها، دون قيد من عقل أو ضمير.

(٧)

الشهوة سر الحياة، أساس الوجود، تخيل الحياة بدون شهوة الجنس أو الأكل أو تحقيق الذات، إذا فهمت سر الشهوة ستفهم سر خلق الله للإنسان!

(٨)

المجاذيب يعرفون أشياء كثيرة، يعرفون أخبار من مات ومن سافر وإلى أين ذهب ومتى سيرجع، كأنهم يملكون أدوات للمعرفة خاصة بهم وحدهم!.

(٩)

لم أتوقع أن يطاوعني بهذه السهولة، لم نَبِتْ تلك الليلة في زقاق المجاذيب، بل في غرفتي فوق سطح بناية قديمة في شارع الموازين، لا تفرق كثيرًا عن نومتنا في الزقاق غير السقف والجدران الخشبية مع سرير قديم بال. عكفت ليلتها على تلقينه بما سيفعل، وأخبره بكل ما سيقابله من ساعة نزوله في الصباح الباكر ثم الذهاب إلى العمل في المدرسة، ومن سيلتقي بهم فردًا فردًا بأسمائهم ووصفهم وما سيدور بينهم، والعجيب كان استيعابه لكل شيء بكفاءة ودون عناء. وعدته أني سأكون جواره، مراقبًا له. تبقى شيء أخير، أن يهذب بعضًا من لحيته ونتبادل ملابسنا، وتطلع الشمس على رياض المجذوب وقد صار رياض المعلم.

(١٠)

..هناك جانب خفي في حياة صديقي المجذوب لم يخبر به أحدًا ولم تفلح محاولاتي المتعددة في استكشافه، ذاك الزمن قبل دخوله عالم المجاذيب، ربما هذا ما جعله يقبل بالتجربة ويقتحم عالمي بثقة، دون خشية أن يفتضح أمرنا. أضف إلى ذلك نمط الحياة التي كنت أعيشها، ففي المجتمع لم تكن لي علاقات قوية أو صداقات حميمة مع أحد، أما في العمل فوظيفتي لم تتعد كوني مشرفًا على نشاط المسرح في مدرسة في إحدى القرى القريبة من مدينة دمنهور، والمدرسة لا يوجد بها قاعة مسرح أو حتى ملعب فسيح لممارسة رياضة الجري أو للعب الكرة! ولم يتعد عملي أكثر من الجلوس أو حتى النوم تحت جرس المدرسة اليدوي لضربه كل أربعين دقيقة معلنًا بداية ونهاية كل حصة، مع قيامي بمهمة توصيل واستلام البريد بين إدارة المدرسة والإدارة التعليمية يومي الأحد والأربعاء من كل أسبوع.

في الطريق للمدرسة ركبنا "ميكروباص" أقلنا إلى ضفة النهر، ليعبر بنا مركب (مُعَدِّية) بين الضفتين، لنقطع بعدها مسافة كيلو متر

واحد على الأقدام فوق طريقٍ ترابي غير ممهدٍ. عبر صديقي بوابة المدرسة في ثقةٍ وهدوء، لم يوقفه أحد؛ فالحارس غير موجود ولا ضرورة لوجوده؛ فالمدرسة التي تتوسط عددًا من الحقول تهدمت أسوارها منذ سنوات ولم تتوفر الاعتمادات المالية من الوزارة لإعادة بنائها.

كنت أتابعه من على مقربة من وسط أحد الحقول المجاورة. توجه إلى غرفة ناظر المدرسة للتوقيع في دفتر الحضور. تحدث إليه الأستاذ مصطفى وكيل المدرسة المفوض بمراقبة حضور وانصراف الموظفين دون أن يرفع عينيه ونظارته السميكة من فوق الدفتر (الحمد الله على سلامتك يا أستاذ، ثلاثون يومًا من الغياب وبدون عذر! تم رفع اسمك للإدارة وانتظر تحقيقًا قريبًا إن شاء الله، صحيح... أنت لم تقم بإعفاء لحيتك! لقد حذرتك من قبل وأنت المسؤول).

لم يعقب عليه رياض كما أوصيته بأن يكون كلامه في أضيق الحدود، وعلى أية حال فإن الأستاذ مصطفى لم ينتظر الرد وعاود التدقيق في الدفتر ووضع علامات التأخير والغياب على أسماء الموظفين، بينما الطلاب يشغلون الفناء باللعب والصياح في انتظار بداية الطابور. صعد

رياض الدرج إلى الطابق الأول. جلس في الغرفة قليلًا يقرأ في أحد الكتب الملقاة على الطاولة الخشبية التي تتوسط الغرفة الفسيحة، ثم خرج إلى الممر ليدق جرس الحصة الأولى كي ينتظم الطلاب في صفوفهم.

مع انتصاف اليوم الدراسي، في حوالي الساعة العاشرة وقد اكتظت الغرفة بالمعلمين، دخلت إحدى المعلمات وهي تنفخ الهواء بضيق. أستاذة آمال، معلمة مجال زراعي في المدرسة. أخبرني أنه تعرف عليها من عبق عطرها النفاذ وتبرجها المبالغ فيه. حاول الخروج من الغرفة إلا إنها استوقفته بيدها "إلى أين يا أستاذ رياض؟ بعض الأشخاص جاؤوا إلى المدرسة وسألوا عنك أول أمس وكذلك الأستاذة نعمة، المعلمة المُنتقِبة في معمل العلوم. أنت رجل طيب حافظ على نفسك"... هز رأسه متفهمًا، لعلهم محققو المديرية جاؤوه بسبب الغياب. ثم خرج من الغرفة والمدرسة كلها كمن يفر من حريق أو زلزال، لحقتُ به في السكة الزراعية حتى ركبنا المُعَدِّية ثم واصلنا الرحلة نحو المدينة.

(١١)

لكنكم أيها المجاذيب لا تشتهون!

(١٢)

وصلنا الشقة في شارع الموازين مُنهَكين من إرهاق السفر، لم أشأ أن أثقل على رفيقي وأخبره أنه عليه أن يقوم؛ ليطهو طعام الغداء كما كنت أفعل في المعتاد، تركته ممددًا على الأرض وانسللت للخارج. اتبعت أسلوب المجاذيب، تسولت الطعام من عدد من المحلات. بعد ساعتين تقريبًا، عدت للشقة وكيسي ممتلئ بأصناف الطعام وبعض الفاكهة. اندهشت حين وجدت الباب مفتوحًا والغرفة في فوضى شديدة. الكتب مبعثرة، مَرْتَبَةُ السرير مشقوقة بسكين والقطن مبعثر على الأرض، ورياض غير موجود إطلاقًا! ماذا حدث؟ هل جُنَّ الرجل وحطم الغرفة وهرب؟ لا أدري! ناديتُ عليه بصوتٍ مرتفع لعله اختبأ في مكانٍ ما. لم يجبني غير جاري الذي يشغل الغرفة المجاورة، عامل نظافة في البلدية، قروي يسكن وزوجته في غرفة أَرْحَب بعض الشيء من غرفتي.

لا توجد أي علاقة بيني وبينه غير عداد الكهرباء الذي ندفع فاتورته مناصفة. خرج تجاهي في عصبية، تأمل ملابسي الرثة في تقزز، سألته في قلق مزدوج، قلقي على صديقي المجذوب من جهة وقلقي أن يكشف هويتي من جهة أخرى. أجابني في عصبية:

"من قليل جاء ضابط ومعه مجموعة من العسكر وأخذوه إلى مديرية الأمن. هل أنت من أقاربه؟ أنت تشبهه إلى حد كبير؟"

تقمصت دور المجذوب، حركت رأسي يمينًا ويسارًا، رفعت صوتي بالكلام:

"كلنا عباد الله، إخوة يا إنسان"

"إنسان؟! من أنت؟ إياك أن تكون حرامي! ارحل من هنا. كفانا صاحبك الذي تبحث عنه الحكومة ليلًا ونهارًا".

سحبت نفسي ونزلت إلى الشارع أتلصص الأخبار من الجيران ورواد المقهى. فهمت أن من أخذوه هم من ضباط الأمن، وأنهم قد سألوا عنه أو عني منذ عدة أيام! وأول ما علموا بمبيتنا في الغرفة ليلة

أمس عن طريق "عم سعد" البقال، شيخ الحارة ومرشد الحكومة، أمسكوا به على الفور!

انتصف الليل وحل بي التعب، فكرت في التسلل لشقتي إلا أني خفت من مطاردة جاري واكتشاف أمري، ساعتها قد تعود الحكومة للإمساك بي، لم أجد مأوى ألجأ إليه غير الزقاق، حيث اعتاد أن ينام صديقي المجذوب، والغريب أنه لا أحد من قاطني الزقاق من المجاذيب اعترض على وجودي، مع يقيني أنهم برغم ملابسي وتشبهي بالشيخ رياض، يعرفون أنني لست هو، ويمرون بي وأنا جالس جار بائع الصحف في النهار، ولسانهم يردد: "الله حي والغائب جاي"، وفي الليل كنت أتحسس الأخبار من تجار شارع الموازين، وذهبت إلى مقر المدرسة ذات مرة، لكن دون فائدة.

..مع شروق شمس أحد الأيام، بعد أسبوعين من اختفاء صديقي المُفاجئ، شعرت بحركة غير معتادة في الزقاق الذي توافد عليه عدد أكبر من قاطنيه من المجاذيب، تجمعوا وكأنهم على موعدٍ مهم، ومع انتصاف النهار وقبل صلاة الظهر تحركوا تجاه مسجد التوبة القريب من

الزقاق، ذهبت معهم يدفعني الفضول والفراغ، قبيل الصلاة وصلت سيارة إسعاف، أنزلوا منها نعشًا وأدخلوه إلى المسجد. دخلت معهم، وكان المسجد مزدحمًا عن آخره بالمصلين والمشيعين. اندهشت حين وجدت بينهم عددًا من أصدقائي في المدرسة وبعض تجار شارع الموازين، وجاري في المنزل العامل في البلدية. سألت عن اسم المتوفى، فأخبروني إنه الأستاذ رياض! معلم في إحدى مدارس مركز دمنهور.

الشيخ رياض؟! كيف حدث ذلك؟ سمعت أثناء سيري مع الجمع الغفير من مشيعي الجنازة أنه توفى غريقًا! البعض يقول إنه صباح أمس وبعد أن أفرج عنه الأمن، توجه إلى عمله مباشرة، إلا إنه سقط من المركب (المُعَدِّية) التي تعبر به النهر للوصول للمدرسة، بعد أن اختل توازنه، وآخرون يزعمون أنه ألقى بنفسه منها عمدًا، حاولوا إنقاذه لكن لم يفلحوا. الغريب أنه وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة كان يصيح وفي صوته قدر كبير من السعادة غير المفهومة (حُر... حُر... رياض حُر).

❋ ❋ ❋

## وهل يجيب البحر؟

وإن سقطتِ الآن من فوقِ هذا الجسر يا سماح، فهل يبتلعكِ البحر؟ أم ستتناثر مفاتنك بين الصخور، تختلط بها، تمتصها في شهوة، وتَحُول دون أن يأسرها الموج للأعماق؟

وإن سقطتِ الآن يا سماح، فمن يجرؤ أن يلتقط جسمك الممشوق من الهواء، أو يسحب خصرك النحيل قبل الميل للهاوية؟

(الشيخ منصور اشمأزَّ من الاستماع إلى بكائك بعدما تفحصك واكتشف أنك بلا حجاب، وأصرَّ أن تغطي ساقيك الفاتنتين بثوبٍ طويل).

الريحُ تسحب الشالَ من فوقِ كتفيك العاريتين، تلمعان في سواد الليل، والماء البارد يرتطم بتحدٍّ بأعمدة الجسر، يرتجف قلبك.

(تندفعين بلهفة الغريب إلى كنف أبينا بولس، يلملم شعيراتك المتناثرة، يسري في عروقك دفء الكاتدرائية).

وإن سقطتِ الآن يا سماح، فهل يغضب أبونا؟

(رفض أبونا أن يوشم الصليب بمعصمكِ إلا بعد أن تعلني حبك ليسوع! لم تفهميه، فأنتِ تذوبين في حب يسوع وإبراهيم وموسى ومحمد وسيدك المرسي أبو العباس. إن استغاثتك بأسمائهم المنيرة هي الشيء الوحيد الذي يصرف الوحش عنك!)

تتحسسين لزوجة البحر الملتصقة بكفك.

(يتسلل إلى مخدعك، تستديرين فتفزعين من مقلتَي التمساح الحمراوين، حيوان شاهدتِهِ في التلفاز يحمل صغيره بين أنيابه في حنان إلى الأمان، تتأذين من عَرَقِه اللزِق).

وإن سقطتِ الآن يا سماح، فهل تحزن سميرة؟

(تلقمك حنانها مع أطفالها الخمسة بعد رحيل أبويك الفاجع، تتبعين ذيل جلبابها، تحاذينها في السير، تتحيرين أتنادينها أمي، أختي، أم خالتي؟ تخلصك من الحيرة ببساطة. "قولي سميرة!" وسميرة تقف لتتفحص قوامك النابض، تتحسس جسدها المترهل ثم تغلق باب

غرفتها لتنام. يجدُكِ رجلها الأشيب وحيدةً، مستلقية على الكنبةِ المنزويةِ بين المطبخ ودورة المياه حين يعود ثملًا قبيل الفجر، يُوْسِخُ ردائك، ثم يسقط مغشيًّا عليه!).

* * *

"انتبهي..".

..ارتفع صوت شاب عبر الجانب الآخر من الطريق، قطع المسافة في لحظة، أمسك بها من الخلف، أنزلها من فوق السياج بصعوبة، جسده كالثلج من الذعر:

"هل تقتلين نفسك؟"

يحاول أن يفك يديه عنها، تشدهما بقوة، تلتصق به، لا تأبه لتوسلاته، حرارته تزداد، تهتز بكامل كيانها، ثم ترحل دون أن تنظر إليه!

❋ ❋ ❋

# قصص قصيرة جدا

# انتظار ثقيل

في طريقي إلى المدرسة الثانوية، بحقيبة الكتب الجديدة، والقميص الأزرق... رأيتُني وأصدقاء الصف: عبد الجواد وصبري وشحاته والسكري وخليل بقدميه المقوستين والبوليني، في طابور أمام مكتب البريد. كان العاشر من الشهر، موعد استلام راتب التقاعد الشهري. ننسل الواحد تلو الآخر، نستند على جدار أحد المنازل، أو الدكاكين التي لم تفتح أبوابها، نسكب كمية من البول لم تسعها المثانة، أو نلقي ببعض المخاط الذي ضاقت به الصدور والمناديل القماش، ثم نعود للطابور نتكئ على عصينا المقوسة، مُطأطِئِي الرؤوس في انتظار.

❋ ❋ ❋

## المعصرة

كان أسرع عمال المعصرة، ولما راقبتُه وجدته أكثرهم نظافة، يتناول خمسة أكواب بيد واحدة، يمررها جميعًا أسفل الصنبور عدة مرات، ثم يقلبها على الرخام. لاحظتُ اليوم الصليب المنقوش على معصمه، طلبتُ ثلاثة أكواب من العصير في كيس وأراد رجل يقف جانبي أربعة. ملأ له أولًا بيد أن الرجل انشغل في مكالمة تليفونية. رأيت العصير قد نفد من الدورق الكبير ومضطر أن أنتظر الدور التالي. سحبتُ الكيس الذي أمامي وهممتُ بالانصراف، استوقفني بإشارة من يده:

- هذة أربعة، أنت لك ثلاثة.

- يا عم!...

- لا.

سألته في انفعال:

- حقاني قوي حضرتك؟

لم يرد...

- ستدخل الجنة إن شاء الله؟

أجابني في هدوء:

- وهل علمت الغيب؟

نظرتُ في عينيه، بدأت كميات العصير الجديدة تأتي من الماكينة، تركتُ الكيس، غادرتُ المحل.

❋ ❋ ❋

## مؤامرة فاشلة

بعد تنظيف المكتب في نهاية اليوم، تعود أن يطلق ريحًا قويًّا يختنق إذا ما تنشقه رئيس مجلس الإدارة، ثم يغلق جميع النوافذ ويغادر. لكن السكرتير الملعون كان يأتي في الصباح، ويفرغ زجاجة كبيرة من معطر للجو في فضاء الغرفة الرحيبة!...

# فرصة مستحيلة

استيقظَ في السادسة... قفز من سريره... مؤكد أنه سيتأخر... كان عليه أن ينهض من الرابعة فجرًا؛ فالطريق من دمنهور إلى الإسكندرية يستغرق ساعة على الأقل... سيسبقه العديد من الشباب من القرى القريبة... وصل أخيرًا لكن المشهد كان غيرَ مألوف... لا يوجد أحد أمام مقر العمل... الساعة لم تتعد الثامنة صباحًا... اقترب من لوحة الإعلانات على باب الفيلا... قرأها سريعًا... أعاد القراءة... تحير ما بين الدخول أو العودة... هل هناك خدعة؟ فكر في عناء السفر والقميص الجديد وتذكرة القطار المكيف... قرر أخيرًا أن ينصرف ولسانه يردد ما فوق اللوحة والذي لم ينتبه إليه مكتوبًا في إعلان الجريدة:

"وظيفة محترمة... راتب مُجْزٍ... مطلوب... إنسان.!.."

❋ ❋ ❋

## استبدال

... أخيرًا قررت "أنيسة" العجوز أن تستبدل بالبنت التي دأبت على التململ والشكوى قطة صغيرة تقود سيرها، تستجدي بموائها عطف المارة!

# كشف

البنت... قامت من على سرير الكشف ترتب ملابسها. سمعت همس الطبيب لأذن أمها: "البنت حامل!".

- من فعلها؟

استدارت لأمها في برود وقالت: "العَو!" ثم غادرت الغرفة.

دارت عين الأم، رأسها، جسدها كله، لم تجد الباب، بدأت تتضاءل شيئًا فشيئًا حتى صارت كخنفساء صغيرة تبحث عن منفذ للهروب من عين الطبيب، الممرضة، برودة التكييف الشديدة، المصابيح البيضاء المبهرة، فلم تجد غير شق صغير بين الجدار ونافذة الطابق السابع. أفلتت منه في لحظة واختفت في الفراغ الأسود.

❋ ❋ ❋

# الكابتن

..عرفته من أول وهلة. وجه شديد السمرة يقترب ناحيتي. جسدٌ انحنى قليلًا فوق عصا الزمن الخشبية عوضًا عن عصا الهوكي التي كانت توسع ظهورنا ضربًا في النادي أثناء التمرين ويتفاخر بها في عراك الشباب. كان مشهورًا بحركاته وفتوته التي تجذب إليه الحسناوات فيحطن به إعجابًا إلا أنهن لم يتزوجن منه! استوقفته مبتسمًا، رقرق الدمع بعيني. حاولت أن ألثم يديه، فاحتواني تحت ذراعه وضغط بشدة على رقبتي، سألني في عنف:

- هل تعرفني؟

تجمع المارة حولنا. ربما ظنوا أن الشيخ أمسك بِلِصٍّ، لم أستطع التنفس، ليس فقط بسبب الحرج ونوبة الضحك التي انتابتني، لكن قبضته في الحقيقة كانت في غاية القسوة!

❋ ❋ ❋

# بيكيا[1]

" بيكيا... أي شيء قديم للبيع؟ "

..سمع " رؤوف " نداء صاحب عربة الأثاث القديم، فنهض في سرعة يحمل مقعد غرفة الضيوف القديم ذا اللون الأحمر، يرفعه فوق ظهره في صعوبة، يكاد أن يقفز به عبر درجات السلم خشية أن يبتعد صاحب العربة، ألقى بالكرسي فوق كومة من الأثاث ولم ينتظر أن يقبض الثمن. صعد إلى شقته وأغلق بابها المتين. لم يكد يستريح على مكتبه الأنيق إلا وارتفع صوت الرجل بالنداء.

- يا أستاذ. يا صاحب الكرسي.

قام ينظر من فُرْجَةٍ بالنافذة.

- يا أستاذ... الرجل المُسِنُّ النائم في الكرسي، هل تريده أم ستتركه فوق البيعة؟

❋ ❋ ❋

[1] (بيكيا)... النداء التقليدي لأصحاب عربات الأغراض المستعملة، يجوبون الشوارع لشراء وبيع الأدوات القديمة في المنازل.

# الفهرس


إهداء ..... ٥

قصة لم يكتبها الشيطان ..... ٧

مدد يا سيدنا ..... ١٨

النعش ..... ٢٣

ناظر الهوى ..... ٣٠

وجوه في الترام ..... ٣٨

شادية ..... ٥٠

زقاق المجاذيب ..... ٦٣

وهل يجيب البحر؟ ..... ٧٦

# قصصة قصيرة جدًا


انتظار ثقيل ..... ٨٠

المعصرة ..... ٨١

مؤامرة فاشلة..... ٨٣

فرصة مستحيلة ..... ٨٤

استبدال ..... ٨٥

كشف..... ٨٦

الكابتن..... ٨٧

بيكا ..... ٨٨


❋ ❋ ❋